سلسلة المعارك و الغزوات
(٤)

غزوة حنين

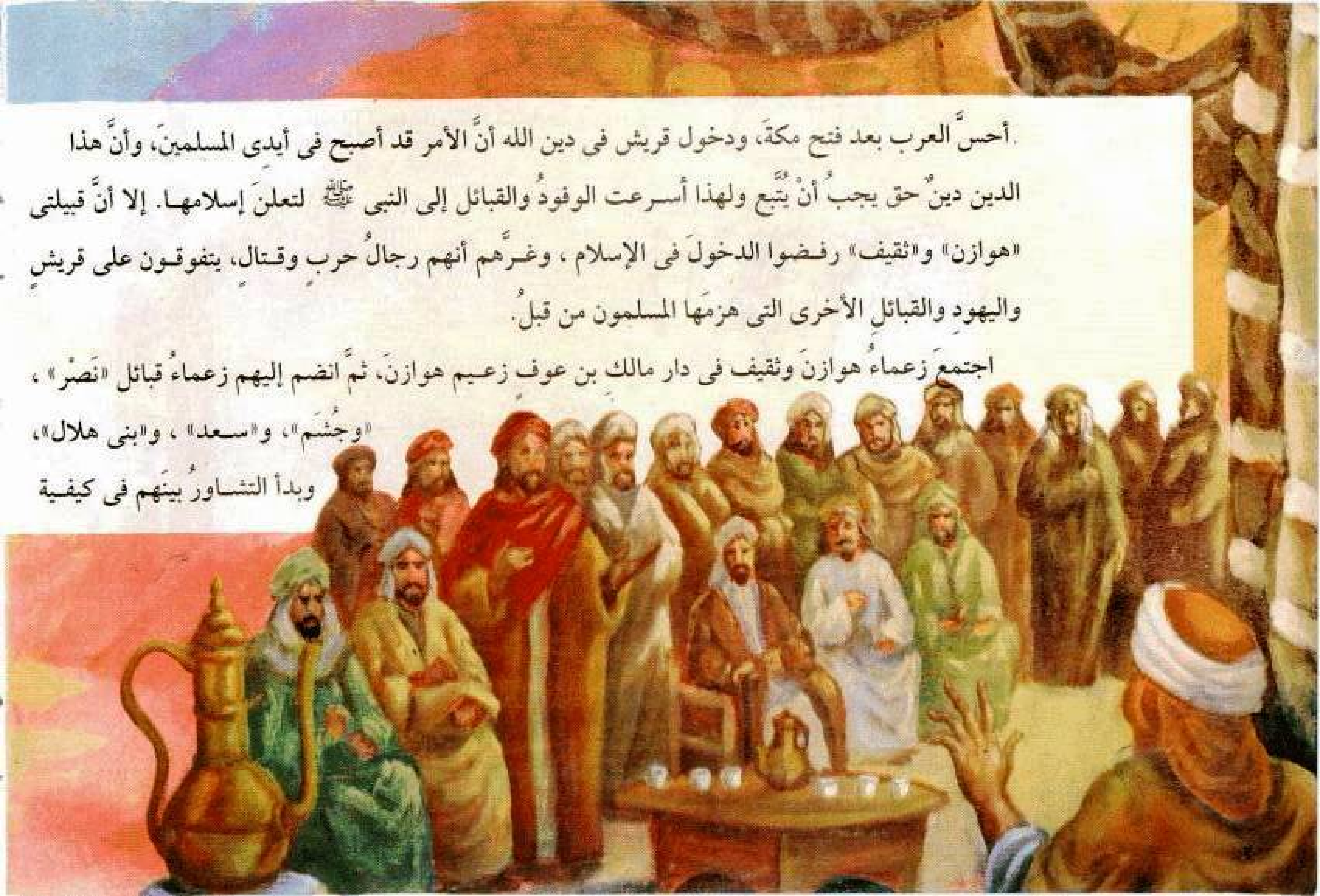
إعداد

أحمد عبد الرازق البكري

رسوم

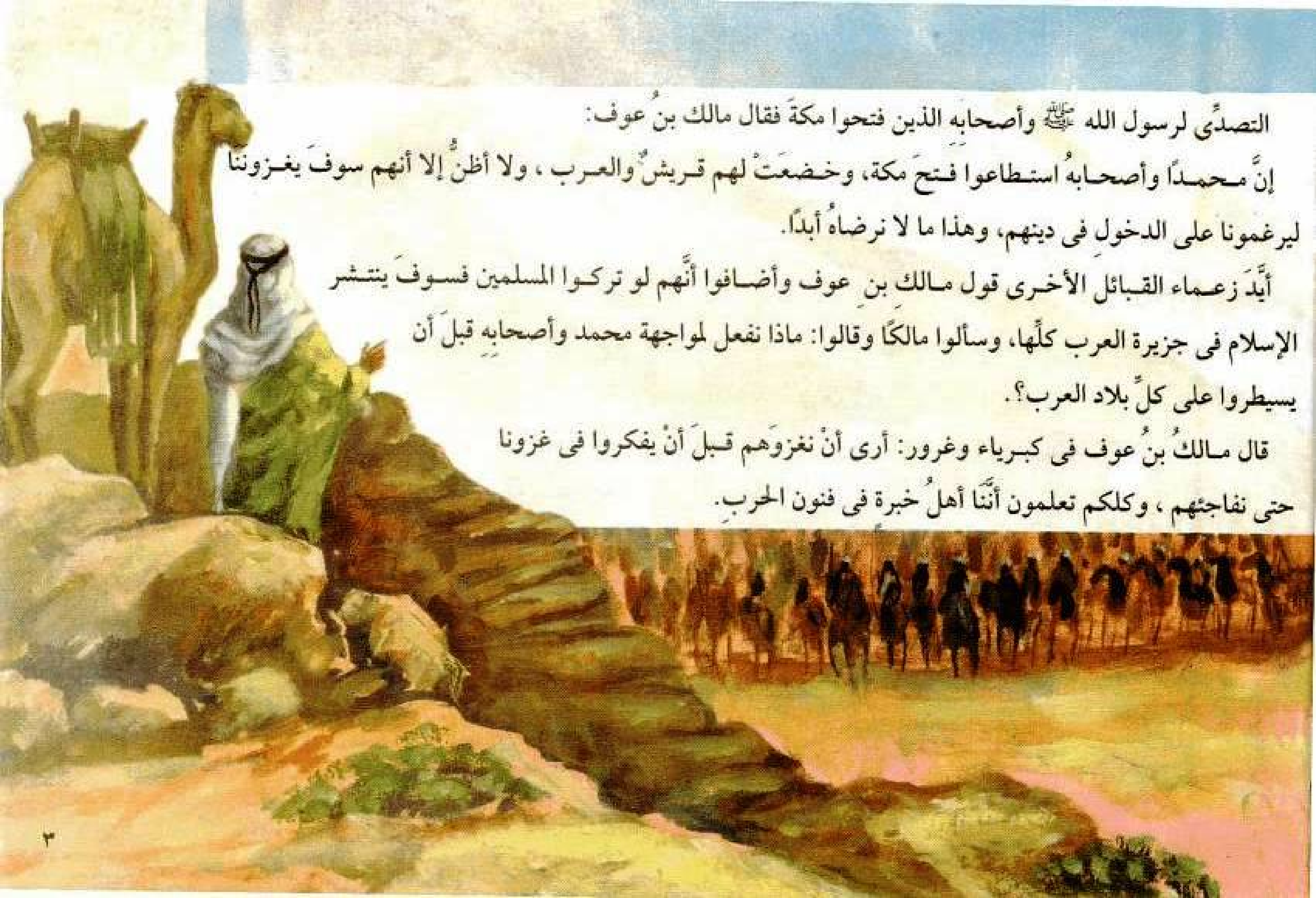
ماهر عبد القادر





أحسَّ العرب بعد فتح مكةَ، ودخول قريش فى دين الله أنَّ الأمر قد أصبح فى أيدى المسلمينَ، وأنَّ هذا الدين دينٌ حق يجبُ أنْ يُتَّبع ولهذا أسرعت الوفودُ والقبائل إلى النبى ﷺ لتعلنَ إسلامها. إلا أنَّ قبيلتى «هوازن» و«ثقيف» رفضوا الدخولَ فى الإسلام، وغرَّهم أنهم رجالُ حربٍ وقتالٍ، يتفوقون على قريشٍ واليهودِ والقبائلِ الأخرى التى هزمَها المسلمون من قبلُ.

اجتمعَ زعماءُ هوازنَ وثقيف فى دار مالك بن عوفٍ زعيم هوازنَ، ثمَّ انضم إليهم زعماءُ قبائل «نَصْر»، «وجُشَم»، و«سعد»، و«بنى هلال»، وبدأ التشاورُ بينَهم فى كيفية

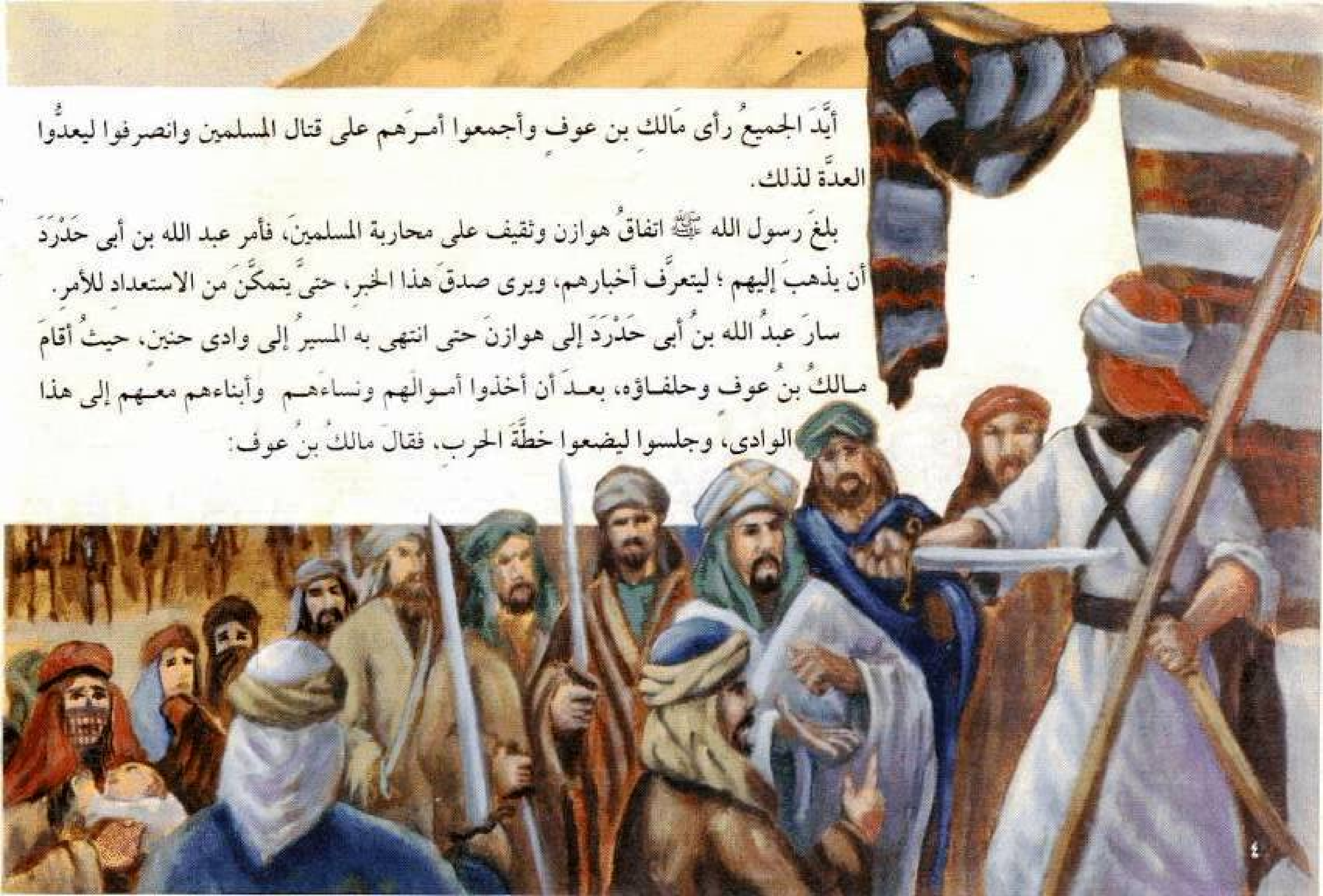


التصدِّى لرسول الله ﷺ وأصحابِه الذين فتحوا مكةَ فقال مالك بنُ عوف:

إنَّ محمداً وأصحابهُ استطاعوا فتحَ مكة، وخضعَتْ لهم قريشٌ والعرب ، ولا أظنُّ إلا أنهم سوف يغزوننا ليرغمونا على الدخولِ فى دينهم، وهذا ما لا نرضاهُ أبداً.

أيَّدَ زعماء القبائل الأخرى قول مالكِ بنِ عوف وأضافوا أنَّهم لو تركوا المسلمين فسوفَ ينتشر الإسلام فى جزيرة العرب كلِّها، وسألوا مالكًا وقالوا: ماذا نفعل لمواجهة محمد وأصحابِه قبلَ أن يسيطروا على كلِّ بلاد العرب؟.

قال مالكُ بنُ عوف فى كبرياء وغرور: أرى أنْ نغزوَهم قبلَ أنْ يفكروا فى غزونا حتى نفاجئهم ، وكلكم تعلمون أنَّنا أهلُ خبرةٍ فى فنون الحربِ.



أيَّدَ الجميعُ رأى مَالكِ بن عوفٍ وأجمعوا أمرَهم على قتال المسلمين وانصرفوا ليعدُّوا العدَّة لذلك.

بلغَ رسول الله ﷺ اتفاقُ هوازن وثقيف على محاربة المسلمينَ، فأمر عبد الله بن أبى حَدْرَدَ أن يذهبَ إليهم ؛ ليتعرَّف أخبارهم، ويرى صدقَ هذا الخبرِ، حتى يتمكَّنَ من الاستعداد للأمر.

سارَ عبدُ الله بنُ أبى حَدْرَدَ إلى هوازنَ حتى انتهى به المسيرُ إلى وادى حنين، حيثُ أقامَ مالكُ بنُ عوفٍ وحلفاؤه، بعدَ أن أخذوا أموالهم ونساءهم وأبناءهم معهم إلى هذا الوادى، وجلسوا ليضعوا خطَّةَ الحربِ، فقالَ مالكُ بنُ عوف:

إن محمداً وأصحابه قابلوا أقوامًا لا علمَ لهم بالحرب ، ولهذا كانَ لهم النصرُ عليهم، أمَّا نحنُ فإنَّنا أصحابُ حربٍ وقتال، وسوف نريهم مـا لا يحبون ، وإنِّى أرى أن نقدِّمَ الرجـالَ فى أوائل الصفوف ، ثم يليهم النسـاءُ والأولادُ والمواشى، ثم نهجمُ عليهم هجمةَ رجلٍ واحد، وإنَّ الغلبة لمن يهجمُ أولا.

اجتـمع مالك بنُ عـوف بقادة هوازنَ وثقـيف وكانَ من بينهم دُرَيْدُ بنُ الصِّـمَّة أحد المحـاربينَ الذينَ لهم خبـرةٌ كبيرة فى أساليب القتال فـأخذ يستشيرهُ فى الأمـر، وكانَ دُرَيدُ كـبيراً فى السنِّ وأصـابه العمى، وعندمـا سمعَ دريدُ أصـواتَ النساء والأولاد والمواشى سـألَ مالكًا عن السببِ فى وجودِهم مـع المحاربينَ فقـال مَالكٌ : أردتُ أنْ أجـعلَ خلفَ كلِّ رجلٍ أهلَهُ ومالَهُ ليقاتل عنهم حتىَّ لا يفرَّ من أرضِ المعركةِ، وعندما سمع دريدُ كلام مالكٍ لم يعجبهُ وقالَ لَهُ:

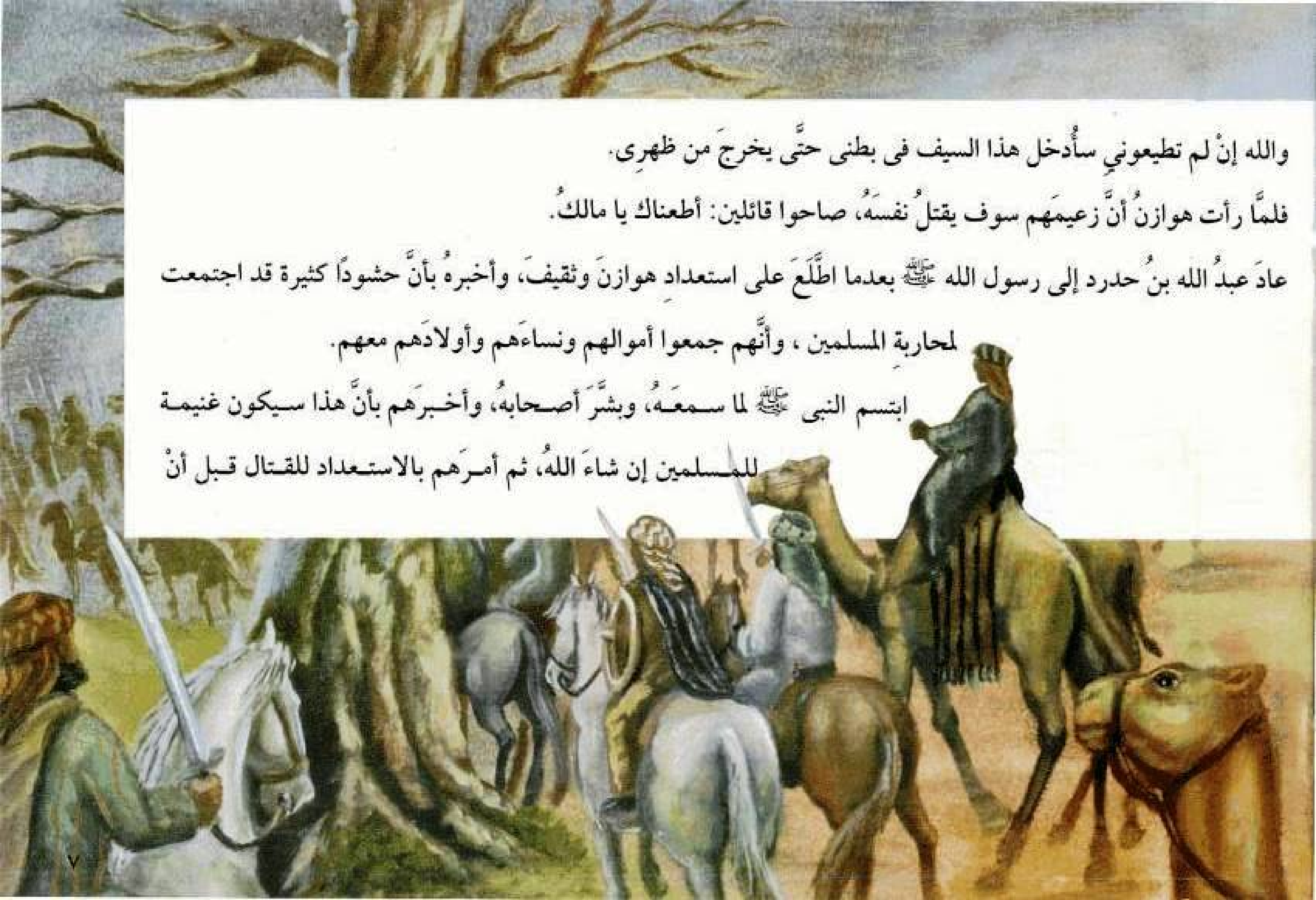


بئس الرأى رأيك، فإنَّ المنهزمَ لا يردهُ مالُهُ أو أهلُهُ، وإنما الذى ينفعُكَ فى الحرب رجالٌ أقوياء وسيوف ورماح . فإن انتصرتَ فقد فزتَ ، وإن انهزمتَ صنتَ أهلَكَ ومالَكَ ولم تُفضَح بين أهلِكَ وجيرانك ، ثم التفت دريدُ وقالَ لهم: إنَّ ما سوف يفعلُهُ مالكٌ لا يتعدَّى رأى راعى غنمٍ، وإنِّى أرى أنَّهُ سوفَ يفضحُكم فى عورتِكم، وأنَّ عدوَّكم سوفَ يتمكَّنُ منكم.

ثارَ مالكُ بنُ عوفٍ من كلام دريد بن الصمةِ وردَّ عليه فى غضبٍ وقال: واللهِ لا أطيعُك ولا آخذُ برأيك، إنَّكَ قد كبرت وذهبَ عقلُكَ.

وخشى مَالكُ بنُ عوفٍ أن يؤثرَ كلامُ دريدٍ على الحشود التى أمامَهُ فأخرجَ سيفهُ وقرَّبَهُ من بطنِه وقالَ لقبيلتِه هوازنَ:





والله إنْ لم تطيعوني سأُدخل هذا السيف فى بطنى حتَّى يخرجَ من ظهرِى.

فلمَّا رأت هوازنُ أنَّ زعيمَهم سوف يقتلُ نفسَهُ، صاحوا قائلين: أطعناك يا مالكُ.

عادَ عبدُ الله بنُ حدرد إلى رسول الله ﷺ بعدما اطَّلَعَ على استعدادِ هوازنَ وثقيفَ، وأخبرهُ بأنَّ حشوداً كثيرة قد اجتمعت لمحاربةِ المسلمين ، وأنَّهم جمعوا أموالهم ونساءَهم وأولادَهم معهم.

ابتسم النبى ﷺ لما سمعَهُ، وبشَّرَ أصحابهُ، وأخبرَهم بأنَّ هذا سيكون غنيمة للمسلمين إن شاءَ اللهُ، ثم أمرَهم بالاستعداد للقتال قبل أنْ



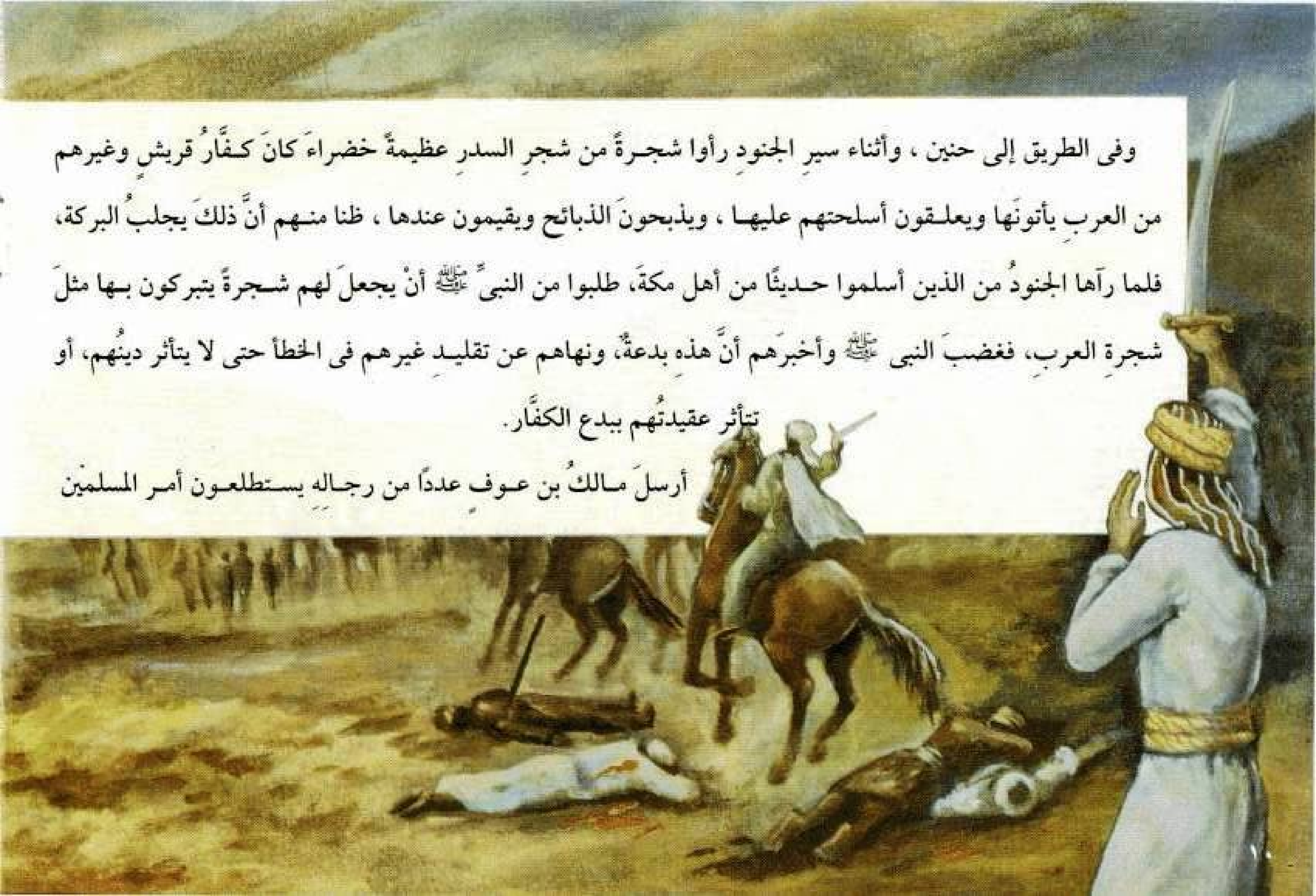
تهجم هوازنُ وثقيف على مكةَ فيستبيحوا حرماتِها، وحتى لا ينقلب أهلُ مكةَ الذين دخلوا فى الإسلام حديثًا ولم يتمكَّنِ الإيمانُ من قلوب بعضهم ، لأنَّهُ لم يمض على إسلامهم سوى تسعة عشر يومًا.

قبلَ أن يخرج النبى ﷺ أرادَ أنْ يستكملَ عُدَّةَ الجيشِ ، فأرسل إلى صفوان بن أميةَ الذى كانَ مشركًا، وطلبَ منْهُ أن يعيرَهُ ما عندهُ من دروعٍ وأسلحة ، فلم يترددْ صفوان بنُ أمية فى ذلكَ وأعطى النبىَّ مائةَ درعٍ، لعلمه بصدق النبىِّ ﷺ وأمانَته، وأنَّهُ سوفَ يعيدُهَا إليه بعدَ المعركةِ ثم طلب النبىُّ ﷺ من ابن عمِّهِ نوفلِ بنِ الحارثِ بن عبدالمطلبِ ما عندهُ من رماحٍ، فأرسلَ إليه نوفلُ ثلاثة آلافِ رمحٍ.

وزَّعَ النبيُّ ﷺ الدروعَ والرماحَ على الجنودِ، ولمَّا تم تجهيزُ الجيش واطمأن النبيُّ ﷺ على قوته واستعداده، وأسلحته، جعلَ عتابَ بن أسيدٍ أميرًا على الناس فى مكةَ.

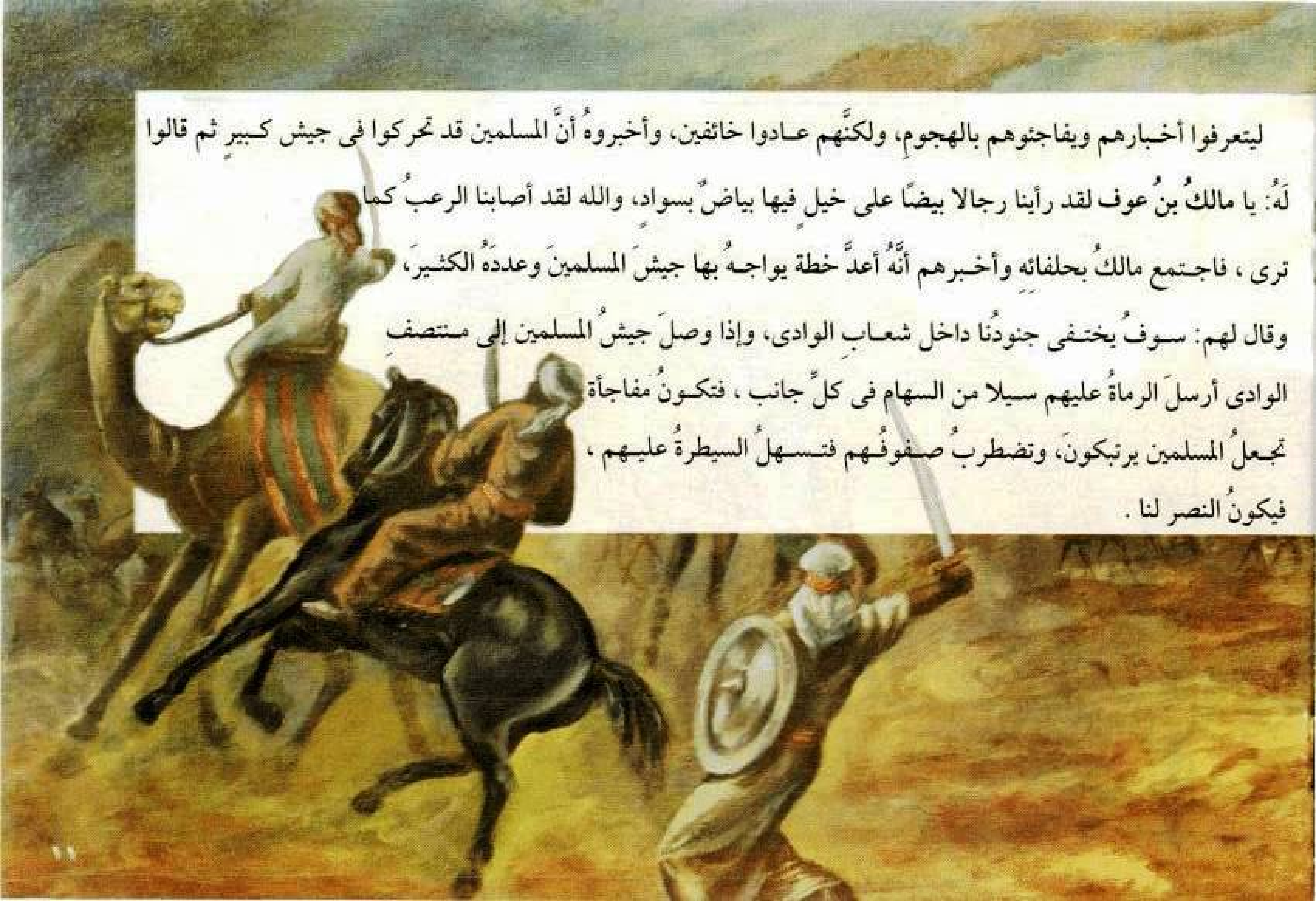
خرجَ النبيُّ ﷺ فى يوم السبت السادس من شهر شوال سنة (٨هـ) على رأسِ جيش كبيرٍ بلغَ عددُهُ اثنى عشرَ ألفًا، منهم ألفان من أهلِ مكةَ الذين أسلموا بعدَ الفتح مباشرةً، وكانت كثرة عددِ الجيش مثارَ إعجاب بعض الجنود الذين أخذتهُم النشوةُ وظنُّوا أنَّهم بهذا العددِ لا يُهزَمُون، فساروا واثقينَ من النصرِ، وأنَّه سيكونُ حليفَهم، فقالَ بعضُهم: لن نُغْلَبَ اليومَ من قِلَّةٍ.





وفى الطريق إلى حنين ، وأثناء سيرِ الجنودِ رأوا شجرةً من شجرِ السدرِ عظيمةً خضراءَ كانَ كفَّارُ قريشٍ وغيرهم من العربِ يأتونَها ويعلقون أسلحتهم عليها ، ويذبحونَ الذبائح ويقيمون عندها ، ظنا منهم أنَّ ذلكَ يجلبُ البركة، فلما رآها الجنودُ من الذين أسلموا حديثًا من أهل مكةَ، طلبوا من النبيِّ ﷺ أنْ يجعلَ لهم شجرةً يتبركون بها مثلَ شجرةِ العربِ، فغضبَ النبى ﷺ وأخبرَهم أنَّ هذه بدعةٌ، ونهاهم عن تقليدِ غيرهم فى الخطأ حتى لا يتأثر دينُهم، أو تتأثر عقيدتُهم ببدع الكفَّار.

أرسلَ مالكُ بن عوفٍ عدداً من رجالِه يستطلعون أمر المسلمين

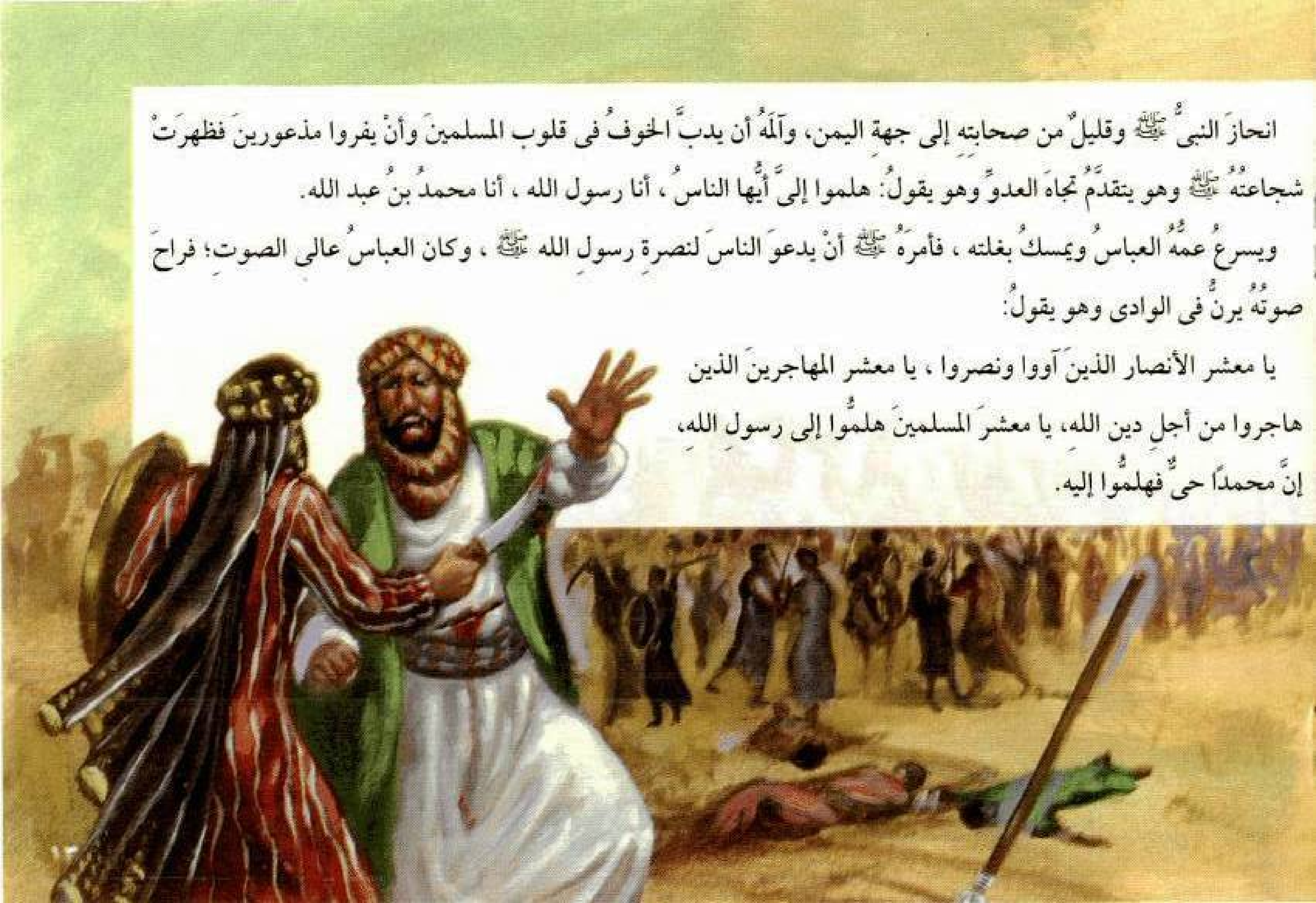


ليتعرفوا أخبارهم ويفاجئوهم بالهجوم، ولكنَّهم عادوا خائفين، وأخبروهُ أنَّ المسلمين قد تحركوا في جيشٍ كبيرٍ ثم قالوا لَهُ: يا مالكُ بنُ عوف لقد رأينا رجالا بيضًا على خيلٍ فيها بياضٌ بسوادٍ، والله لقد أصابنا الرعبُ كما ترى ، فاجتمع مالكُ بحلفائِه وأخبرهم أنَّهُ أعدَّ خطة يواجهُ بها جيشَ المسلمينَ وعددَهُ الكثيرَ، وقال لهم: سوفُ يختفي جنودُنا داخل شعابِ الوادي، وإذا وصلَ جيشُ المسلمين إلى منتصفِ الوادي أرسلَ الرماةُ عليهم سيلا من السهام في كلِّ جانب ، فتكونُ مفاجأةً تجعلُ المسلمين يرتبكونَ، وتضطربُ صفوفُهم فتسهلُ السيطرةُ عليهم ، فيكونُ النصر لنا .



وصلَ جَيشُ المسلمين إلى حنينٍ ليلا ، فأمر النبى ﷺ أصحابهُ أنْ يستريحوا ، ومع عتمة الليل تحرَّكَ جيش المسلمينَ لمفاجأة العدوِّ، ومعَ أولِ خيوطِ الفجر ركبَ رسولُ الله ﷺ بغلتهُ وأمرَ الجيشَ بالتحرُّكِ ، فانحدروا إلى وادى حنينٍ الذى سبقَهم إليه مالكُ بنُ عوفٍ ومن معَهُ، واختبئوا فى مضايق الجبال.

وما إنْ ظهرَ المسلمونَ حتى انهالَ الأعداءُ عليهم يمطرونهم بسيلٍ من السهامِ، وتجمَّعَتْ كتائب العدوِّ بعدَ مفاجأتهم، وهجموا على المسلمينَ بسيوفهم، فاضطربَتْ صفوفُ المسلمينَ، وفُقد تنظيمهم ، وراح العدوُّ يلاحقُهم ويطاردُهم فى كلٍّ مكانٍ.



انحازَ النبيُّ ﷺ وقليلٌ من صحابتِه إلى جهةِ اليمن، وآلمَهُ أن يدبَّ الخوفُ فى قلوبِ المسلمينَ وأنْ يفروا مذعورينَ فظهرَتْ شجاعتهُ ﷺ وهو يتقدَّمُ تجاهَ العدوِّ وهو يقولُ: هلموا إلىَّ أيُّها الناسُ، أنا رسولُ الله ، أنا محمدُ بنُ عبد الله.

ويسرعُ عمُّهُ العباسُ ويمسكُ بغلته ، فأمرَهُ ﷺ أنْ يدعوَ الناسَ لنصرةِ رسولِ الله ﷺ ، وكان العباسُ عالى الصوتِ؛ فراحَ صوتُهُ يرنُّ فى الوادى وهو يقولُ:

يا معشر الأنصار الذينَ آووا ونصروا ، يا معشر المهاجرينَ الذين هاجروا من أجلِ دين الله، يا معشرَ المسلمينَ هلمُّوا إلى رسولِ اللهِ، إنَّ محمداً حىٌّ فهلمُّوا إليه.



ولما سمعَ الجنودُ صوتَ العباس خجلوا من موقفهِم ، وتركِهم رسول الله ﷺ وحدهُ فصاحوا من كلٍّ جانب: لبَّيك لبَّيكَ.

انطلق الجنودُ نحو مصدرِ الصوت في سرعةٍ خاطفةٍ، وكلما كرَّرَ العباسُ نداءَه رجعت جموع المسلمين وعادَتْ إليهم شجاعتُهم وحماستُهم، حتى إنَّ الرجلَ منهم إذا لم يطاوعهُ بعيرُهُ في الرجوع نزلَ عنه وأخذ درعَهُ وسيفَهُ وأسرَعَ إلى ساحةِ القتال ، لينال شرفَ الدفاعِ عن دينه. وتلاحقَتْ كتائبُ المسلمينَ واحدة وراءَ الأخرى، حتى ملئوا ساحة المعركة، والرسول ﷺ يتقدمُهم.

واشتبكَ الفريقان، واستطاعَ المسلمونَ أنْ يحولوا المعركة

لصالحهم، فهجموا على العدوِّ هجمة رجلٍ واحدٍ، والنبى ﷺ يدعو ربَّهُ قائلا: اللهمَّ أنزل نصرَكَ.

وينظرُ النبىُّ ﷺ إلى ساحةِ القتالِ وقد اشتد الصراعُ بينَ الفريقين، ويتقدَّمُ النبىُّ ﷺ الصفوفَ رافعًا صوتَهُ ليبثَّ الحماسَ فى المقاتلينَ، وأخذ يردِّدُ:

- أنا النبىُّ لا كذب، أنا ابن عبد المطلب.

وأنزل اللهُ تعالى ملائكتَهُ من السماءِ لتنصرَ المسلمين، كما أنزلَ سكينتَهُ عليهم ليثبتوا فى أرض المعركة.

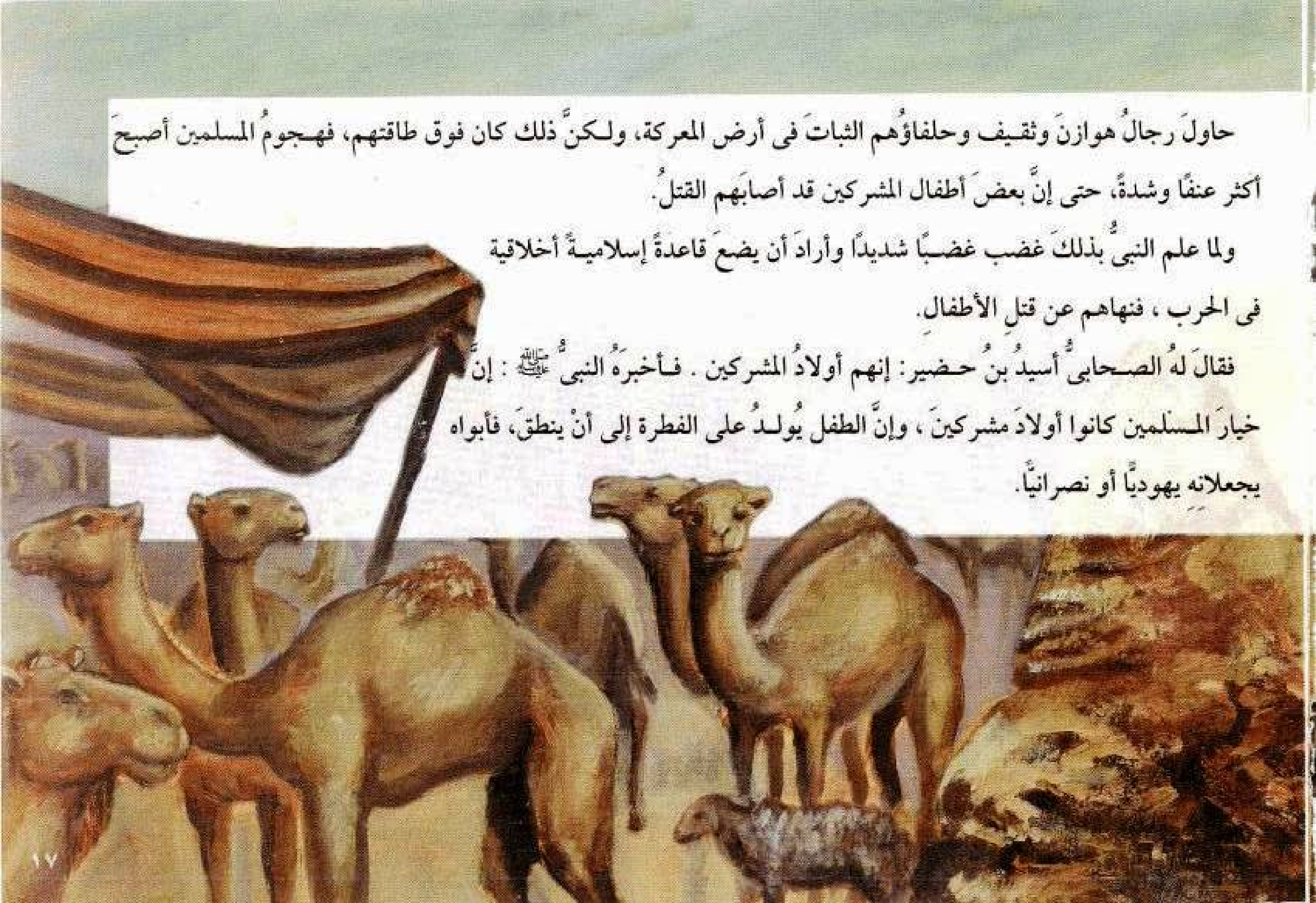
اشتدَّ الصراعُ بينَ المتحاربينَ ، وبدأتْ تظهرُ بطولاتُ فرسان المسلمينَ، فيرى علىُّ بن أبى طالبٍ - رضى الله عنه - رجلا





من هوازنَ يرفعُ رايتهُ على رمحهِ فيتبعهُ قومهُ ، وقد أكثرَ الضرب والطعن فى المسلمين ، فتصدَّى له علىٌّ وقتلَهُ.

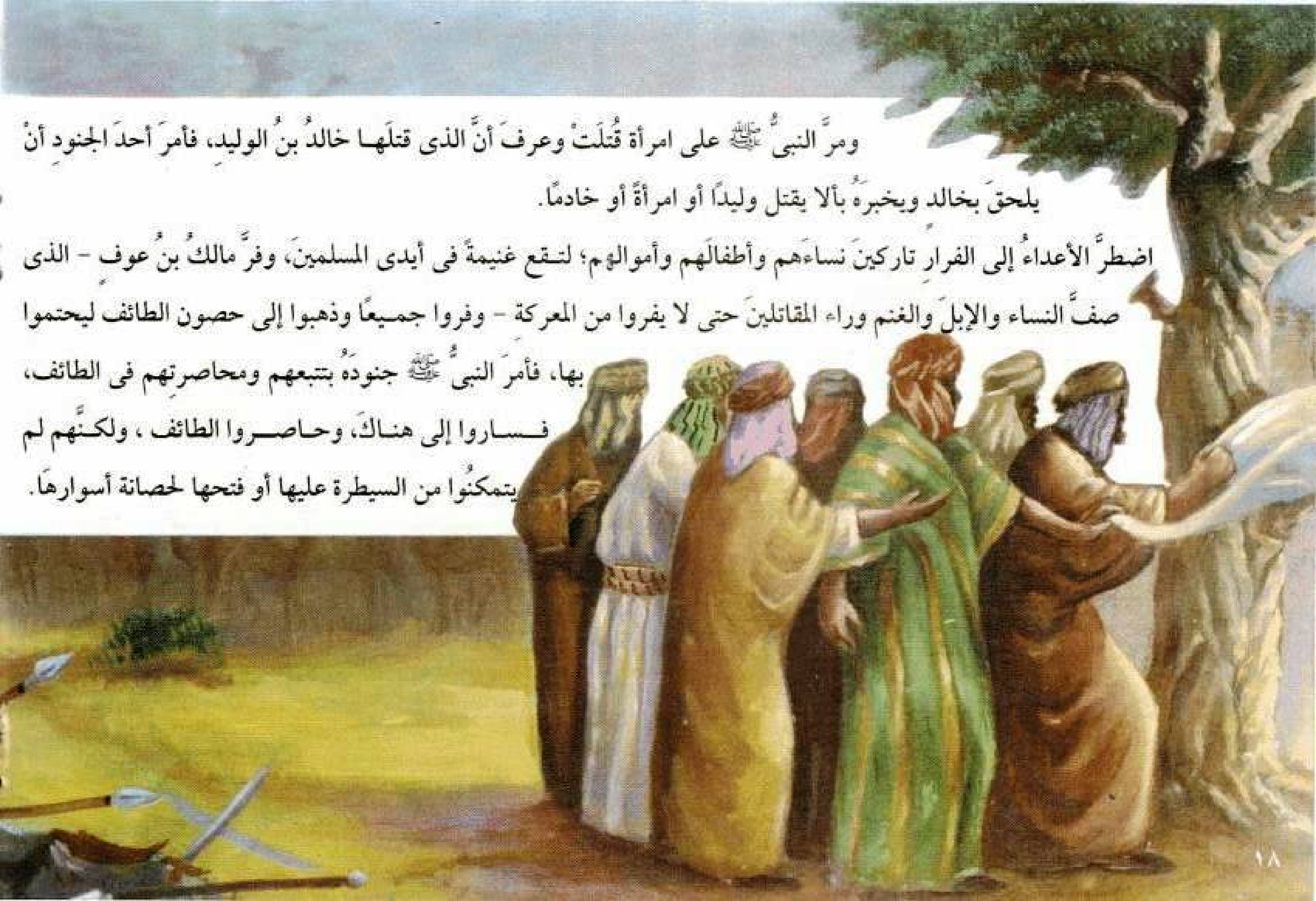
وكانَ خالدُ بنُ الوليد على رأس فرسانِ المسلمين ، وحينما تجمَّعُوا مرة ثانية انطلق خالدٌ وفرسانُهُ كالسهام على أعداء المسلمينَ يقتلونهم، وكلماَّ مرَّتْ دقيقةٌ زادَتْ شدةٌ المعركةِ، فعلىٌّ - رضى الله عنه - يضربُ الأعداءَ بسيفِهِ، وخالدٌ يذيقهم الموت واشتركَتْ بعضُ النساء فى المعركة، فقد شاركَتِ الصحابيةُ أم سليم بنت ملحانَ فى المعركة وكان ابنها عبد الله مازال جنينًا فى بطنها ، ورآها المسلمونَ وهى تُمسكُ خنجرًا فى يدهَا ، ولمَّا سُئِلَتْ عنْهُ قالت: خنجرٌ أخذتُهُ معى ، إن اقتربَ منى أحدٌ من المشركينَ فتحتُ به بطنَهُ.



حاولَ رجالُ هوازنَ وثقيف وحلفاؤُهم الثباتَ فى أرض المعركة، ولكنَّ ذلك كان فوق طاقتهم، فهجومُ المسلمين أصبحَ أكثر عنفًا وشدةً، حتى إنَّ بعضَ أطفال المشركين قد أصابَهم القتلُ.

ولما علم النبىُّ بذلكَ غضب غضبًا شديدًا وأرادَ أن يضعَ قاعدةً إسلاميةً أخلاقية فى الحرب، فنهاهم عن قتلِ الأطفالِ.

فقالَ لهُ الصحابىُّ أسيدُ بنُ حضير: إنهم أولادُ المشركين. فأخبرَهُ النبىُّ ﷺ: إنَّ خيارَ المسلمين كانوا أولادَ مشركينَ، وإنَّ الطفل يُولدُ على الفطرة إلى أنْ ينطقَ، فأبواه يجعلانهِ يهوديًّا أو نصرانيًّا.



ومرَّ النبيُّ ﷺ على امرأة قُتلَتْ وعرفَ أنَّ الذى قتلَهـا خالدُ بنُ الوليدِ، فأمرَ أحدَ الجنودِ أنْ يلحقَ بخالد ويخبرَهُ بألا يقتل وليدًا أو امرأةً أو خادمًا.

اضطرَّ الأعداءُ إلى الفرارِ تاركينَ نساءَهم وأطفالَهم وأموالهم؛ لتقع غنيمةً فى أيدى المسلمينَ، وفرَّ مالكُ بنُ عوفٍ - الذى صفَّ النساء والإبلَ والغنم وراء المقاتلينَ حتى لا يفروا من المعركة - وفروا جميعًا وذهبوا إلى حصون الطائف ليحتموا بها، فأمرَ النبيُّ ﷺ جنودَهُ بتتبعهم ومحاصرتِهم فى الطائف، فساروا إلى هناكَ، وحاصروا الطائف، ولكنَّهم لم يتمكنُوا من السيطرة عليها أو فتحها لحصانة أسوارهَا.

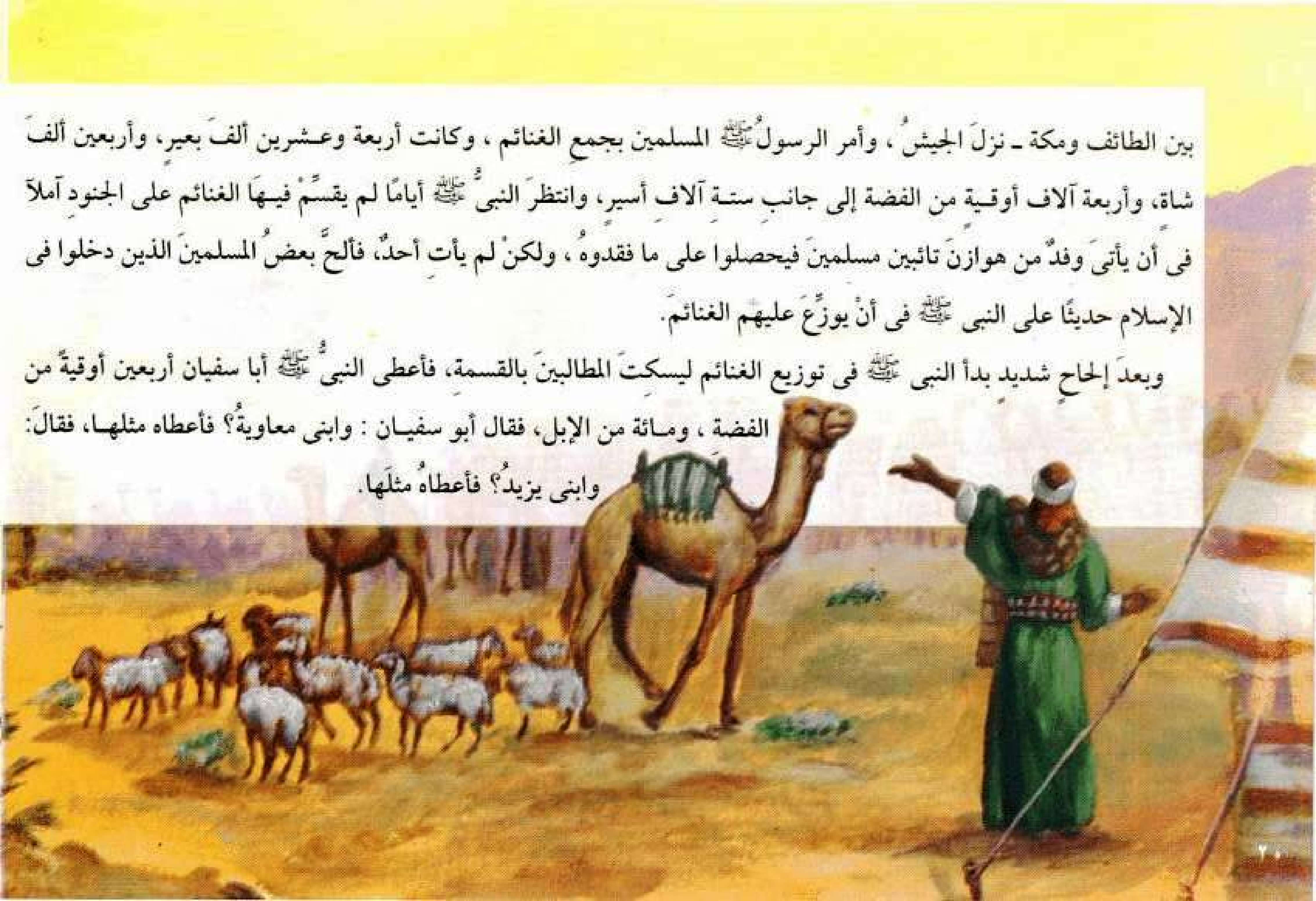


ورأى النبي ﷺ أنْ يفكَّ الحصارَ عن الطائف حتى تنتهى الأشهرُ الحرمُ، على أملِ أنْ يهدىَ اللهُ القوم إلى الإسلامِ.

وأتمَّ اللهُ النصرَ للمسلمين بعد ما تعلَّمُوا درسًا عظيمًا، وهو أنَّ النصرَ لا يكونُ بكثرة العددِ والعُدَّةِ التى اغتروا بها فى أول الأمر، ولكنَّ النصر يكونُ بقوة الإيمان والاعتماد والتوكُّل على الله تعالى.

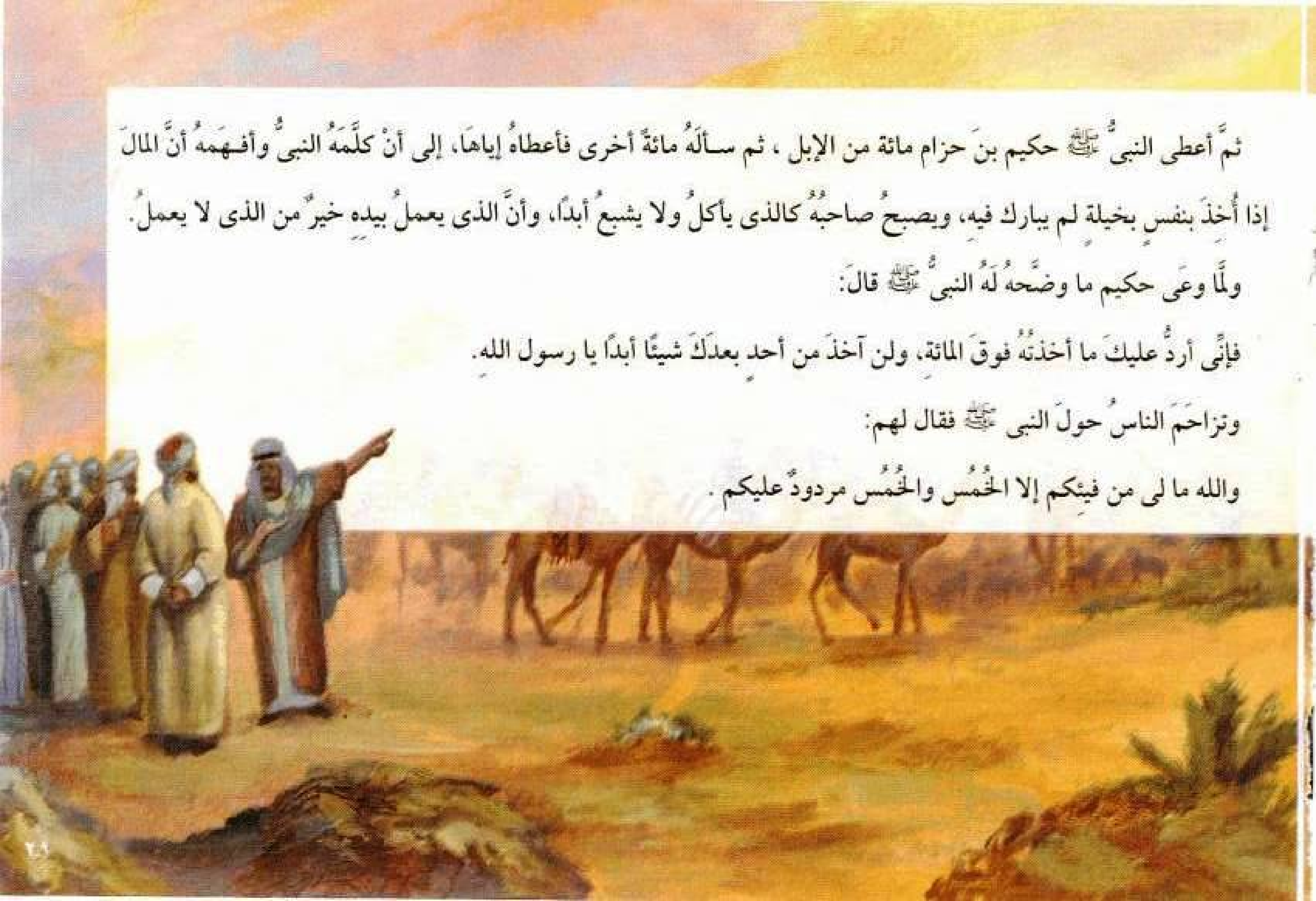
طلبَ المسلمونَ من النبىِّ ﷺ أنْ يدعوَ على أهلِ ثقيف، ولكنَّهُ رفضَ ذلك وقال: «اللهمَّ اهدِ ثقيف وأتِ بهم».

عـادَ النبيُّ ﷺ بالجيش متجهًا إلى مكة المكرمة، وفى الجعرانة - مكانٌ



بين الطائف ومكة ـ نزلَ الجيشُ ، وأمر الرسولُ ﷺ المسلمين بجمعِ الغنائم ، وكانت أربعة وعشرين ألفَ بعيرٍ، وأربعين ألفَ شاة، وأربعة آلاف أوقية من الفضة إلى جانبِ ستةَ آلافِ أسيرٍ، وانتظرَ النبيُّ ﷺ أيامًا لم يقسِّمْ فيها الغنائم على الجنودِ آملاً فى أن يأتىَ وفدٌ من هوازنَ تائبين مسلمينَ فيحصلوا على ما فقدوهُ ، ولكنْ لم يأتِ أحدٌ، فألحَّ بعضُ المسلمينَ الذين دخلوا فى الإسلام حديثًا على النبى ﷺ فى أنْ يوزِّعَ عليهم الغنائمَ.

وبعدَ إلحاحٍ شديدٍ بدأ النبى ﷺ فى توزيع الغنائم ليسكتَ المطالبينَ بالقسمة، فأعطى النبيُّ ﷺ أبا سفيان أربعين أوقيةً من الفضة ، ومائة من الإبل، فقال أبو سفيان : وابنى معاوية؟ فأعطاه مثلها، فقال: وابنى يزيدُ؟ فأعطاهُ مثلَها.



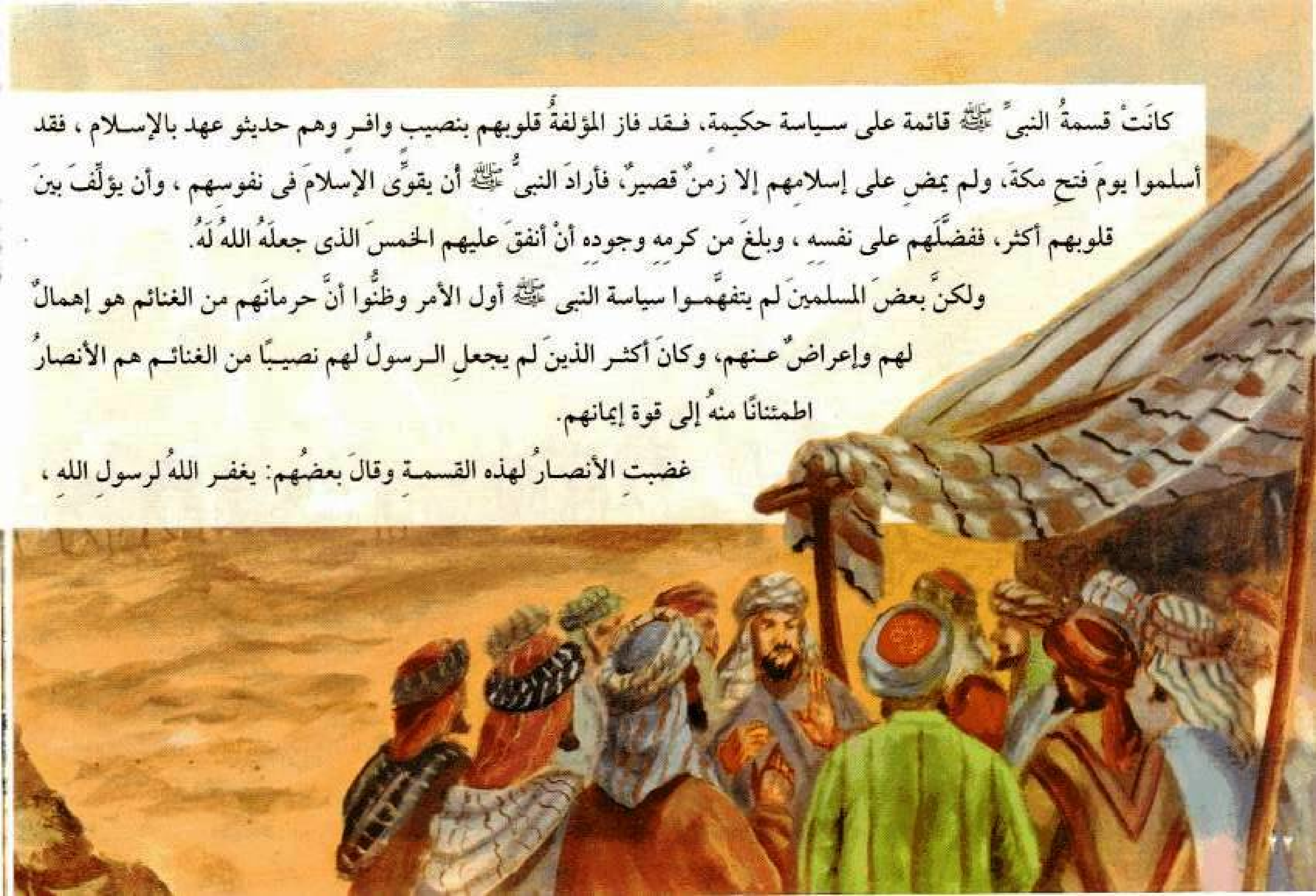
ثمَّ أعطى النبيُّ ﷺ حكيم بنَ حزام مائة من الإبل ، ثم سـألَهُ مائةً أخرى فأعطاهُ إياهَا، إلى أنْ كلَّمَهُ النبيُّ وأفـهَمهُ أنَّ المالَ إذا أُخذَ بنفسٍ بخيلةٍ لم يبارَكْ فيه، ويصبحُ صاحبُهُ كالذى يأكلُ ولا يشبعُ أبدًا، وأنَّ الذى يعملُ بيدِه خيرٌ من الذى لا يعملُ.

ولمَّا وعَى حكيم ما وضَّحهُ لَهُ النبيُّ ﷺ قالَ:

فإنِّى أردُّ عليكَ ما أخذتُهُ فوقَ المائةِ، ولن آخذَ من أحدٍ بعدَكَ شيئًا أبدًا يا رسول اللهِ.

وتزاحَمَ الناسُ حولَ النبى ﷺ فقال لهم:

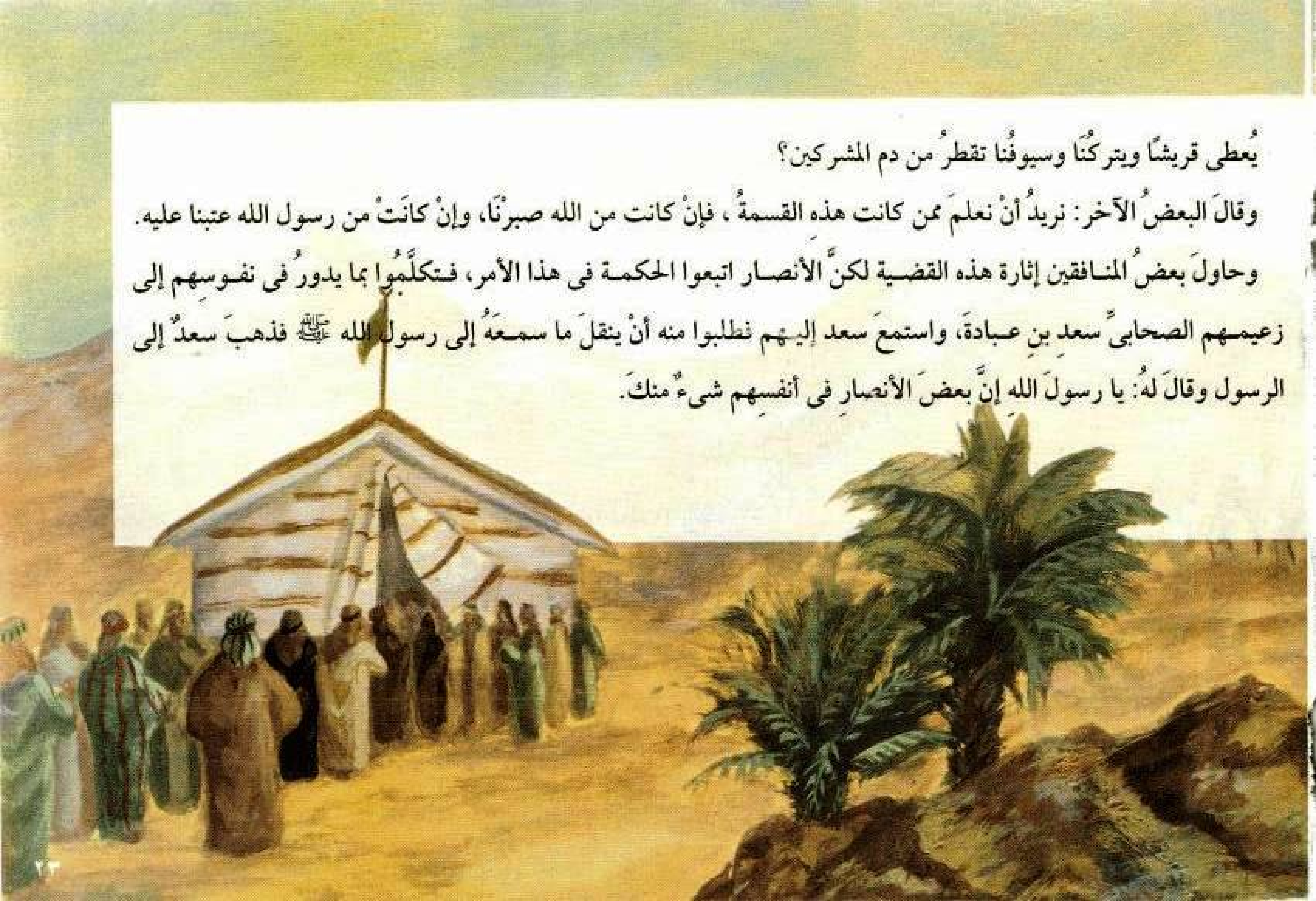
والله ما لى من فيئِكم إلا الخُمُس والخُمُس مردودٌ عليكم.



كانَتْ قسمةُ النبىِّ ﷺ قائمة على سياسة حكيمة، فقد فاز المؤلفةُ قلوبهم بنصيب وافرٍ وهم حديثو عهد بالإسلام ، فقد أسلموا يومَ فتحِ مكةَ، ولم يمضِ على إسلامِهم إلا زمنٌ قصيرٌ، فأرادَ النبىُّ ﷺ أن يقوِّىَ الإسلامَ فى نفوسِهم ، وأن يؤلِّفَ بينَ قلوبهم أكثر، ففضَّلَهم على نفسِه ، وبلغَ من كرمِه وجودِه أنْ أنفقَ عليهم الخمسَ الذى جعلَهُ اللهُ لَهُ.

ولكنَّ بعضَ المسلمينَ لم يتفهَّموا سياسة النبى ﷺ أول الأمر وظنُّوا أنَّ حرمانَهم من الغنائم هو إهمالٌ لهم وإعراضٌ عنهم، وكانَ أكثر الذينَ لم يجعلِ الرسولُ لهم نصيبًا من الغنائم هم الأنصارُ اطمئنانًا منهُ إلى قوة إيمانهم.

غضبتِ الأنصارُ لهذه القسمةِ وقالَ بعضُهم: يغفر اللهُ لرسولِ اللهِ ،



يُعطى قريشًا ويتركُنا وسيوفُنا تقطرُ من دم المشركين؟

وقالَ البعضُ الآخر: نريدُ أنْ نعلمَ ممن كانت هذه القسمةُ، فإنْ كانت من الله صبرْنَا، وإنْ كانَتْ من رسول الله عتبنا عليه.

وحاولَ بعضُ المنافقين إثارة هذه القضية لكنَّ الأنصار اتبعوا الحكمة في هذا الأمر، فتكلَّمُوا بما يدورُ في نفوسِهم إلى زعيمهم الصحابيِّ سعدِ بنِ عبادةَ، واستمعَ سعد إليهم فطلبوا منه أنْ ينقلَ ما سمعَهُ إلى رسول الله ﷺ فذهبَ سعدٌ إلى الرسول وقالَ لهُ: يا رسولَ اللهِ إنَّ بعضَ الأنصارِ في أنفسِهم شيءٌ منك.

سألَ النبيُّ سعدَ بنَ عبادةَ عن السببِ فقالَ لَهُ إنَّ السببَ هو قسمةُ الغنائم بينَ المسلمينَ من قريش وغيرهم ، ولم يكنْ للأنصارِ نصيبٌ مثلَهم.

أرادَ النبى ﷺ أنْ يعرفَ رأىْ سعد فيما يقولُهُ قومُهُ فسألَهُ قائلا : فأين أنتَ من ذلك يا سعدُ؟

فردَّ سعدٌ قائلا : ما أنا إلا امرؤٌ من قومى يا رسولَ الله.

فقالَ لَهُ النبيُّ ﷺ : إذنْ فاجمعْ لى قومَك.. فإذا اجتمعوا فأعلمنى. فلما اجتمعوا خرجَ النبيُّ ﷺ إليهم وقالَ: يا معشر الأنصار : ما قالةٌ بلغتنى عنكُمَ وجدةٌ وجدتموها علىَّ فى أنفسِكم ، ألم آتكم ضُلالا فهداكمُ اللهُ، وعالَةً فأغناكُم اللهُ، وأعداءً فألَّفَ اللهُ بينَ قلوبكم؟.



فردَّ الأنصار: بلى .. اللهُ ورسولُهُ أمنٌّ وأفضلُ.

قال النبيُّ ﷺ : ألا تجيبونَ يا معشر الأنصار ؟

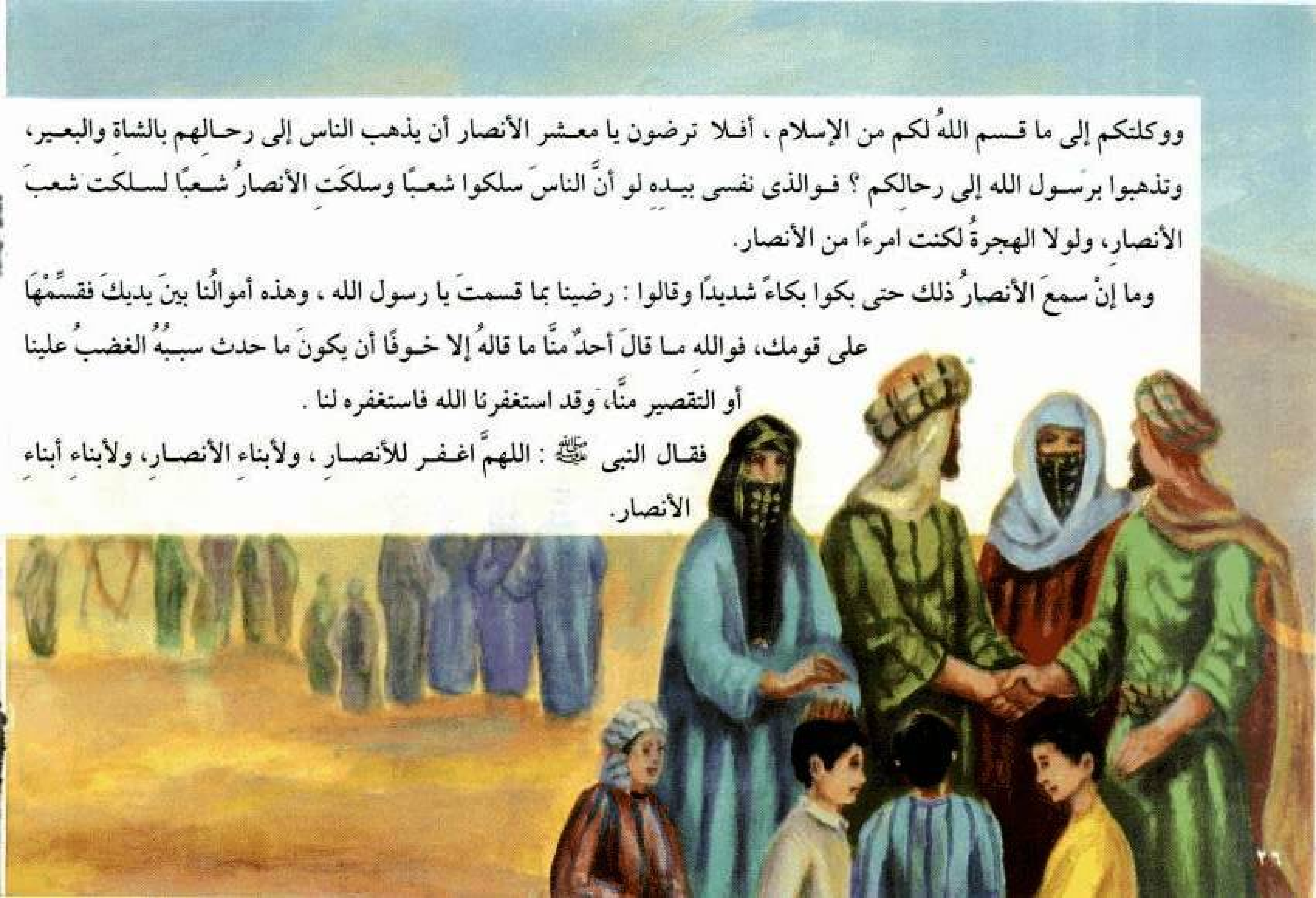
فقالوا : وبما نُجيبُ يا رسول اللهِ؟

فقال ﷺ : واللهِ لو شئتم لقلتم فصدَقْتُم وصُدِّقتُم: جئتنا طريداً فآويناك، وخائفًا فأمَّنَّاك، ومخذولا فنصرناك.

فقالوا : الفضلُ لله ورسولِهِ.

التفت النبي ﷺ وقال لهم : أوجدتم في نفوسِكم يا معشرَ الأنصارِ في شيءٍ يسير من الدنيا تألَّفْتُ به قومًا أسلموا،

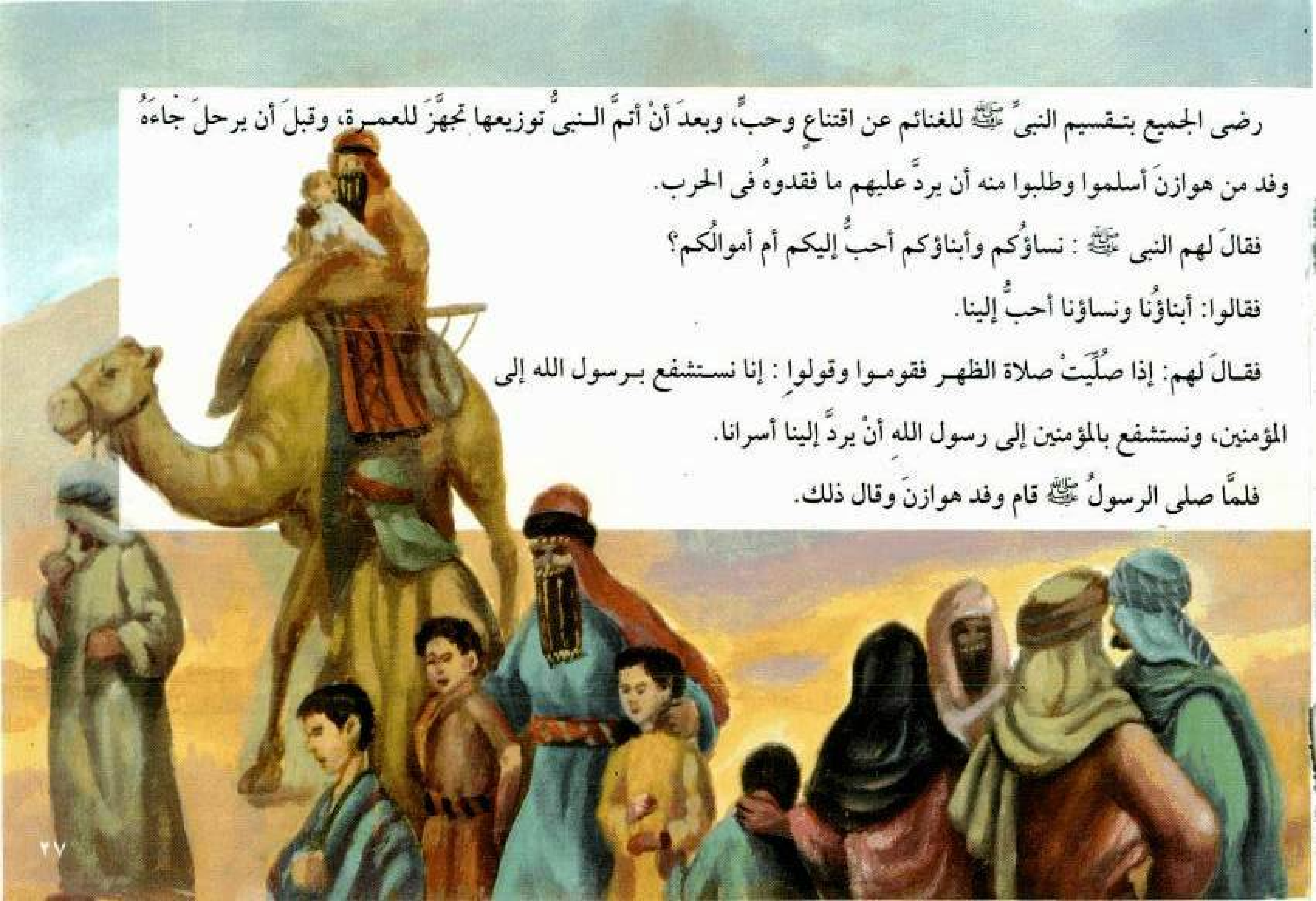




ووكلتكم إلى ما قسم اللهُ لكم من الإسلام ، أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشاةِ والبعيرِ، وتذهبوا برسول الله إلى رحالِكم ؟ فوالذى نفسى بيدِهِ لو أنَّ الناسَ سلكوا شعبًا وسلكتِ الأنصارُ شعبًا لسلكتُ شعبَ الأنصارِ، ولولا الهجرةُ لكنت امرءًا من الأنصار.

وما إنْ سمعَ الأنصارُ ذلك حتى بكوا بكاءً شديدًا وقالوا : رضينا بما قسمتَ يا رسول الله ، وهذه أموالُنا بينَ يديكَ فقسِّمْهَا على قومك، فواللهِ ما قالَ أحدٌ منَّا ما قالهُ إلا خوفًا أن يكونَ ما حدث سببُهُ الغضبُ علينا أو التقصير منَّا، وقد استغفرنا الله فاستغفره لنا .

فقال النبى ﷺ : اللهمَّ اغفر للأنصارِ ، ولأبناءِ الأنصارِ، ولأبناءِ أبناءِ الأنصار.



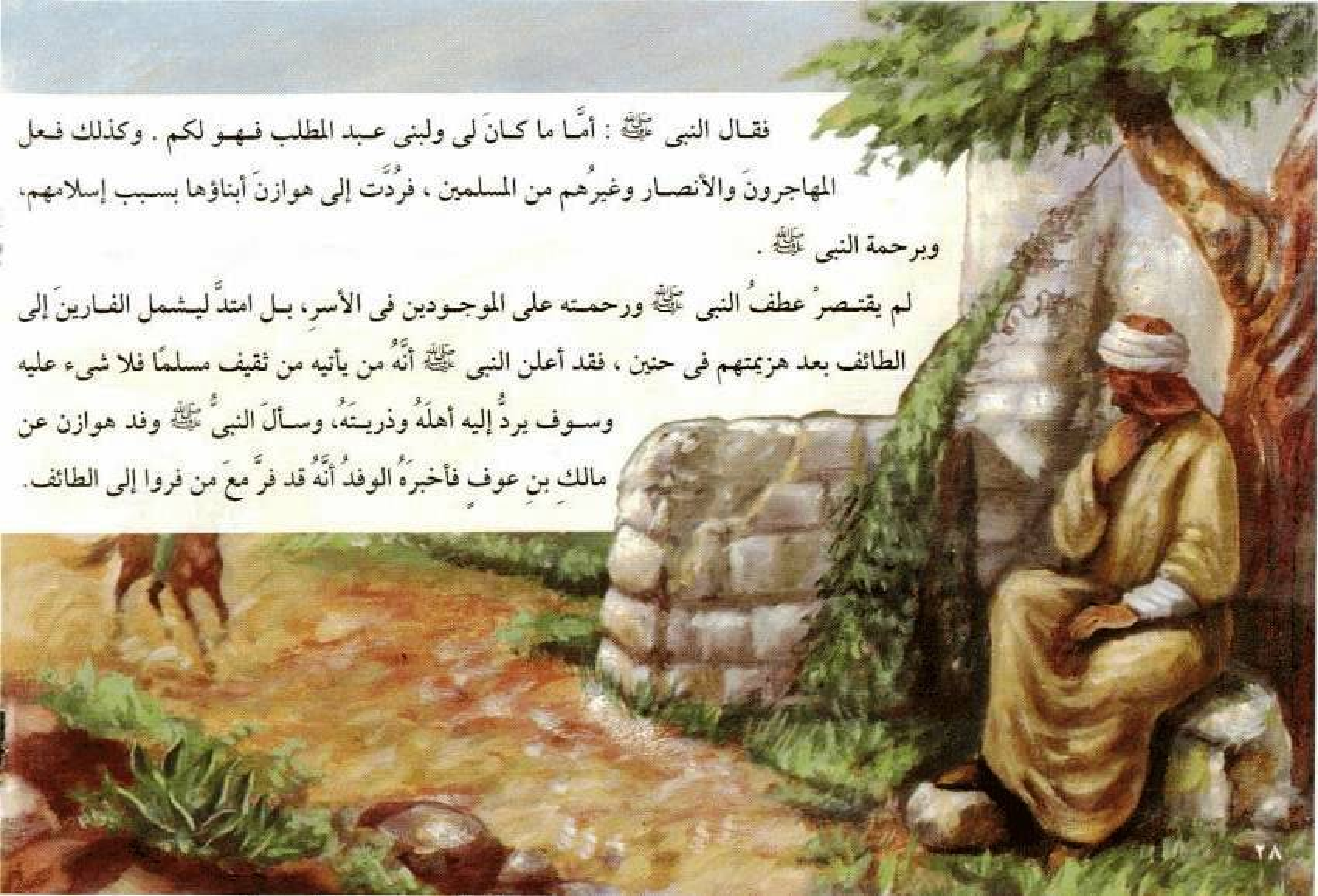
رضى الجميع بتقسيم النبىَّ ﷺ للغنائم عن اقتناعٍ وحبٍّ، وبعدَ أنْ أتمَّ النبىُّ توزيعها تجهَّزَ للعمرة، وقبلَ أن يرحلَ جاءَهُ وفد من هوازنَ أسلموا وطلبوا منه أن يردَّ عليهم ما فقدوهُ فى الحرب.

فقالَ لهم النبى ﷺ : نساؤُكم وأبناؤكم أحبُّ إليكم أم أموالُكم؟

فقالوا: أبناؤُنا ونساؤنا أحبُّ إلينا.

فقالَ لهم: إذا صلَّيتُ صلاة الظهر فقوموا وقولوا: إنا نستشفع برسول الله إلى المؤمنين، ونستشفع بالمؤمنين إلى رسول اللهِ أنْ يردَّ إلينا أسرانا.

فلمَّا صلى الرسولُ ﷺ قام وفد هوازنَ وقال ذلك.



فقال النبى ﷺ : أمَّا ما كانَ لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم . وكذلك فعل المهاجرونَ والأنصار وغيرُهم من المسلمين ، فرُدَّت إلى هوازنَ أبناؤها بسبب إسلامهم، وبرحمة النبى ﷺ .

لم يقتصرْ عطفُ النبى ﷺ ورحمته على الموجودين فى الأسرِ، بل امتدَّ ليشمل الفارينَ إلى الطائف بعد هزيمتهم فى حنين ، فقد أعلن النبى ﷺ أنَّهُ من يأتيه من ثقيف مسلمًا فلا شيء عليه وسوف يردُّ إليه أهلَهُ وذريتَهُ، وسألَ النبيُّ ﷺ وفد هوازن عن مالكِ بنِ عوفٍ فأخبرَهُ الوفدُ أنَّهُ قد فرَّ معَ من فروا إلى الطائف.



فقال لهم النبيُّ ﷺ : أخبروا مالكًا إن أتانى مسلمًا رددتُ عليه أهلَهُ وأعطيتُهُ مائةً من الإبل.

وبينما كانَ مالكُ بن عوفٍ جالسًا يفكرُ فيما حدثَ لَهُ هو وقومُهُ إذ جاءه رجلٌ يبشره بما قالَهُ النبيُّ وقالَ لَهُ:

أبشر يا مالكُ فقد قال رسول الله ﷺ إن أتيته مسلمًا فإنَّهُ سوف يردُّ عليكَ مالكَ وأهلَكَ ويعطيكَ مائة من الإبل، وقد ردَّ لأبناءَ والنساء على أهل هوازنَ جميعًا.

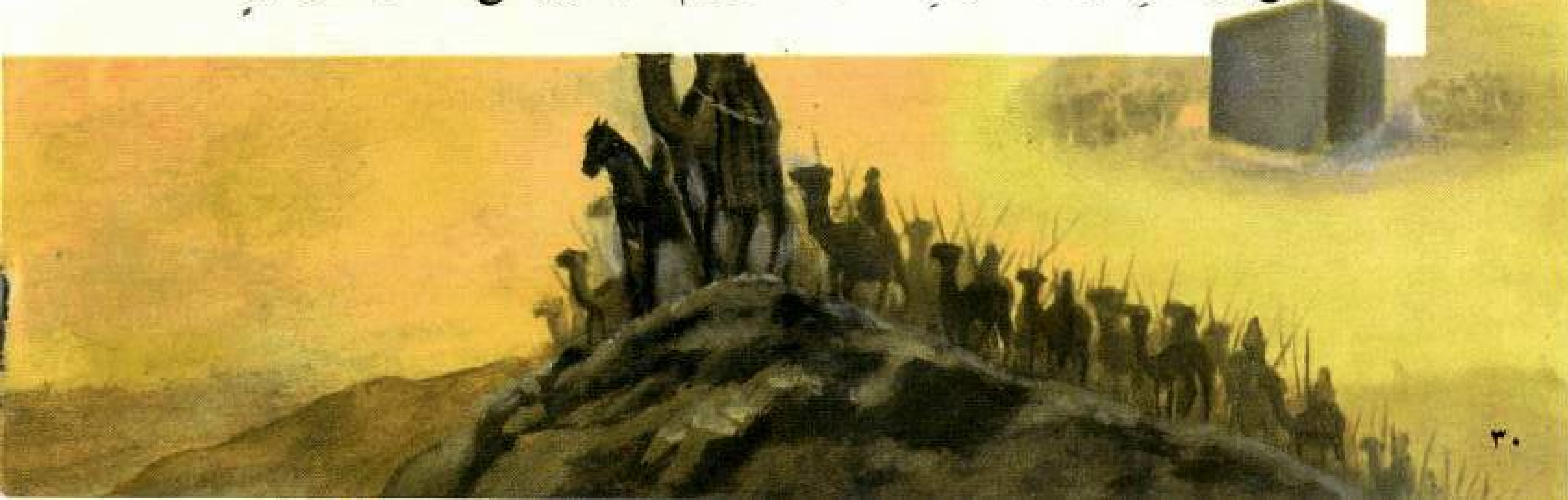
أحسَّ مالكُ بنُ عوفٍ بأنَّ هذا الخلق لا يصدرُ إلا عن نبيٍّ فقالَ: إن هذا لهو خلقُ الأنبياء، ورجلٌ كهذا لجديرٌ بأن يتبعَهُ الناسُ جميعًا.

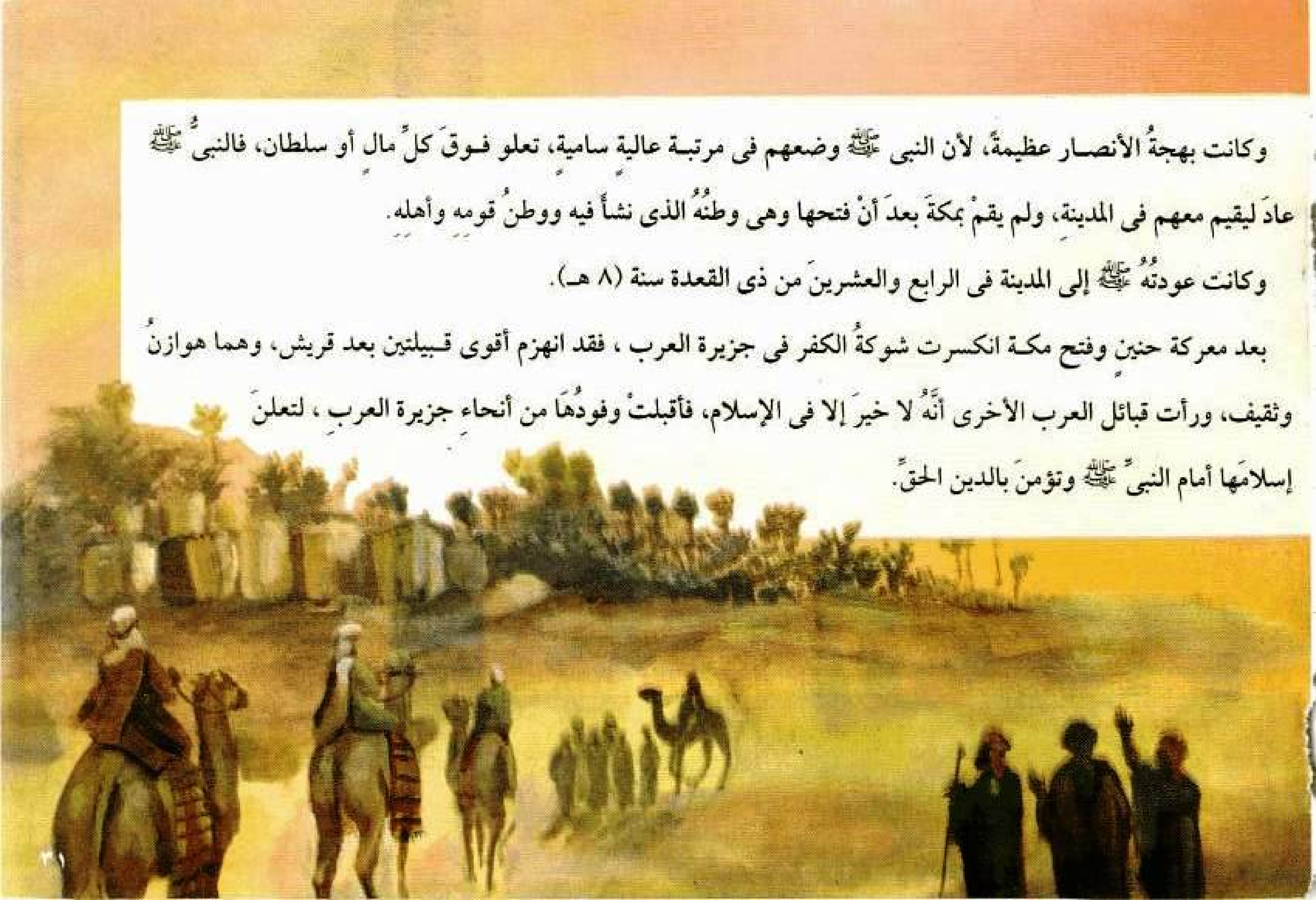
أخذَ مالك بنُ عوف يستعد للرحيل إلى النبيِّ، وفكَّر فى الهروب من ثقيف وعزَّ

عليه أنْ يكون بالأمس القريب زعيمًا يُطاعُ أمرُهُ فيهم، واليومَ لا أمر لَهُ ولا نهيَ، بل فقد سلطانَهُ على نفسِه ، فأراد أن ينتزع نفسه من الأسرِ إلى الحريةِ ، من ثقيف والكفر إلى النبى ﷺ والإسلام.

وذات ليلة هربَ مالكٌ من الطائف ووصل إلى النبى ﷺ ، وأعلن إسلامه فما كانَ من رسول الله ﷺ إلا أن ردَّ عليه أهله، وأعطاهُ مائةً من الإبل ، وأكرمَهُ بأن ولاهُ على من أسلمَ من قومِه ومن القبائلِ المجاورة.

عاد النبيُّ ﷺ إلى مكةَ وأحرمَ للعمرةِ، ثمَّ أدَّاها آمنا مطمئنًا فى بيت الله الحرام، وولَّى على مكة عتابَ بنَ أسيدِ، ثم ودَّعَ أهلَهَا ليرجعَ إلى المدينةِ المنورة وسط فرحةِ المسلمينَ ، فقد رزقهم اللهُ بنصرين: فتح مكة ، وانتصار حنينِ.





وكانت بهجةُ الأنصار عظيمةً، لأن النبى ﷺ وضعهم فى مرتبة عاليةٍ سامية، تعلو فوقَ كلِّ مالٍ أو سلطان، فالنبىُّ ﷺ عادَ ليقيم معهم فى المدينةِ، ولم يقمْ بمكةَ بعدَ أنْ فتحها وهى وطنُهُ الذى نشأَ فيه ووطنُ قومه وأهله.

وكانت عودتُهُ ﷺ إلى المدينة فى الرابع والعشرينَ من ذى القعدة سنة (٨ هـ).

بعد معركة حنينٍ وفتح مكة انكسرت شوكةُ الكفر فى جزيرة العرب ، فقد انهزم أقوى قبيلتين بعد قريش، وهما هوازنُ وثقيف، ورأت قبائل العرب الأخرى أنَّهُ لا خيرَ إلا فى الإسلام، فأقبلتْ وفودُهَا من أنحاءِ جزيرة العربِ ، لتعلنَ إسلامَها أمام النبىِّ ﷺ وتؤمنَ بالدين الحقِّ.



رقم الإيداع: ٩٥/٨٣٩١ الترقيم الدولى: I.S.B.N: 977-261-449-9